

اجتهادات الظاهر والباطن

قضية الظاهر والباطن إحدى القضايا الفلسفية الكبرى التي شغلت الكثير من المفكرين عبر التاريخ. ومع ذلك، ظلت الخلافات على بعض جوانبها مستمرة حتى اليوم. لكن ما يعنينا اليوم منها لم يعد محل خلاف، لأنه يتصل بسلوك الإنسان الفعلى فى أمر يكشف فيه هذا السلوك عن النوايا الحقيقية، أى يسهل فيه التمييز بين الظاهر والباطن.

يتحدث كثيرون عن الديمقراطية، ويدعون إلى الحرية، ويؤكدون ضرورة احترام حقوق الإنسان. يبدو أصحاب هذا الخطاب ديمقراطيين حتى النخاع، ومؤمنين بالحرية إلى أقصى حدود، ومستعدين بالتالى لقبول الآراء الأخرى المختلفة معه، والتعامل معها باحترام، والتزام آداب الحوار فى مناقشتها. وهذا ما يظهر أمام من يسمعون كلامهم، أو يقرأون كتاباتهم، فيظنون أنهم أمام نماذج مثالية للديمقراطية والحرية. لكن الكلام مهما تكن وسيلة التواصل به يظل مجرد كلام من النوع الذى يُعبر عنه المثل الشعبى الحكيم القائل كلام بن عم حديث. غير أننا لا نحتاج إلى التفتيش فى نوايا من يقولونه أو يكتبونه لكى نعرف مدى التزامهم بما يترتب عليه. يكفى أن نتابع سلوك هذا، أو هذه، ممن يُسهبون فى الحديث عن الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان، لنعرف كيف يتصرف فى محك عملى عندما يدخل فى نقاش مع آخر يختلف معه، حيث تظهر حقيقته، ويتضح ما إذا كان الحديث عن الديمقراطية والحرية مجرد رطانة للدعاء بأنه صاحب مبادئ، أو لأن له مصلحة فى ترديد خطاب يبدو ديمقراطيا

لتحقيق هدف معين، كما يفعل على سبيل المثال كثير ممن يستخدمون الدين وسيلة لأغراض أخرى.

الخلافاً في الرأي هو الذي يكشف حقيقة من يحمل لقب ديمقراطي أو حقوقي. كيفية تصرفه تجاه هذا الخلاف، وطريقته في إدارته، تُظهران باطنه الذي يختفي، أو يُختفي، وراء الظاهر في كلامه أو كتاباته. والحال أن الكثير من المدافعين عن الديمقراطية والحرية في بلادنا يدعون إيماناً بما يفعلون عكسه إذا اختلف أي منهم مع الآخر. الديمقراطيون حقاً يحترمون آراء المختلفين معهم حتى إذا رأوا فيها شططاً من وجهة نظرهم، ويتأملون ما يطرحه الآخرون لعلهم يجدون فيه ما يفيد لأنهم يريدون المصلحة العامة، ويؤمنون بأن أحداً لا يملك الحقيقة المطلقة.